سبعون ساعةً من الموت...
سبعون ساعة من الحياة!

ماجد السامرّائي

تأملْ معي ما أسموه: «الشرعية الدولية» ـ العراقيون يبيعون كتبهم

عزيزي الدكتور سماح،

يأتيني صوتُكَ عبر الهاتف، فأستقبله كأنّه قادمٌ من زمن بعيد، شاقّاً مسافاتِ الحصار، وهو يدعوني إلى أن أكتب لـ الآداب، الأثيرة عندي وعندَ كلِّ قارئٍ عراقيٍّ، شيئاً عمّا حصل، وعمّا عشناهُ خلال سبعين ساعةً من الموت، ما نزال مهدَّدين بأخرى مثلها، وثالثةٍ... و.. و.. في مسلسل كتابة نهايتنا.

وها أنا أستجيب، ملبّياً دعوتَك المخلصة التي جاءت بدافع التضامن معنا في محنتنا الإنسانية الكبيرة، واستجابةً للموقف القومي العربي الأصيل الذي أعرفه فيك، كما عرفتُه من قبل، وأعرفه اليومَ في الآداب وفي عميد دار الآداب الدكتور سهيل إدريس، إنساناً وموقفاً.

*

دَعْني، هذه المرّة، أحاول وضعَ ما جرى في إطاره... وأرجوك أن تتأمل معي ما أسموه: «الشرعية الدولية»، وما جرّتْهُ على مسرح حياتنا، في هذا الوطن المحاصر واقعاً وحياةً وإنساناً، على الأرض ومن السماء. فنحن، في مأساتنا هذه، لا نقدّم «للمشاهدين» مسرحيةً تراجيديةً عنوانها: «نهاية عصر الإنسان الوطني»، فنطلب منهم الصمتَ والمشاهدةَ والاستماعَ، وقد يصفّقون للمخرج والممثلين معاً في نهاية المسرحية. بل إنّ لنا حكاية أخرى، ووضعاً آخر: فنحن شعب يُذْبح، ويقاد إلى المحرقة كلَّ يوم. ومن

ثمّ، فحكايتُنا حكايةٌ بسيطةٌ تركيباً، وإن كانت معقّدةً معنًى ودلالةً. لذلك دعني أتكلّمْ لا كما تأمر خشبةُ المسرح. فلن أقرأ في نصّ مكتوب، بل سأهدم الحائط الرابعَ وأُغادر خشبة المسرح، فأندمج بالجمهور، وأخرج على النص خروجاً كليّاً. فنحن اليوم بين واحد من خيارين:

- بين التبعية وإعدام الهوية القومية.. أو «الموت المنّظم»...

- وبين القول إقراراً إنّ الأمة واحدةٌ في التبعية... أو الخروج من التاريخ.

لقد حملت الصواريخُ الأمريكيةُ - البريطانية معها إلينا أكثرَ من مفارقة مأساوية:

- المفارقة الأولى: أنّ الناس، هنا، كانت تنتظر إطلالةَ شهر رمضان.. فجاءتهم هذه الصواريخُ حاملةً على متنها عبارةً كتبها الجنودُ الأمريكانُ والبريطانيون بأنفسهم: «هدية رمضان». وفي الصباح تأمّل الناسُ الخرابَ والدمارَ الذي أحدثته هذه الصواريخ، وأحصَوْا عددَ الضحايا من المدنيين، وتفقّدوا بعضهم بعضاً.. ثم علّقوا على ما شاهدوا بأسى وحزنٍ، قائلين: إنها صواريخ انطلقتْ من قواعدها على «أرض الإسلام الأُولى»، فلا بدّ لُمطلقيها من مراعاة مشاعر المسلمين، وإرسالِ «الهدايا» إليهم احتفاءً بمقدم الشهر الفضيل!

- والمفارقة الثانية هي: أنّ القصف حين راح يشتدّ في الليلة الأولى للعدوان، واستمرّ من غير انقطاع، علا صوتُ التكبير من الجوامع والمساجد. وقد لاذ كثيرٌ من الناس، الذين كانوا في تلك الساعات خارج بيوتهم أو بعيداً عنها، ببيوت اللّه. ومن هناك راحوا يؤدّون شعائرَ الصلاة، مُوَلّين وجوهَهم صوب المسجد الحرام. وأما الصواريخ

لماذا تهيمن تماثلية الاستخذاء على الرسميين العرب؟

الآتية، من هناك، فكانت تولّي ظهرها للمسجد الحرام، لتكون وجهاً لوجه مع القائمين بين يدي اللّه!

- والمفارقة الثالثة: أنّ الحرب في يومها الثالث أجّلتْ ساعةَ البلاء حتى الفجر. استيقظ الناس على أصوات انفجارات هزّ عصفُها البيوتَ على ساكنيها. نظروا في ساعاتهم؛ كانت تقترب، موعداً، من الفجر. فتناولوا طعام سحورهم، مستقبلين أولَ أيام رمضان على أصوات انفجاراتِ نُذُرِ الموت.. وعلى إيقاع المقاومات الأرضية!

*

في ساعات القصف العنيف، وانفجارِ الصواريخ الموجّهةِ، حيث نشعر بزلزال عنيف ينتاب الأرضَ التي نقف عليها، يغدو «الحاضرُ» أو «الراهنُ» هو ما يتملك إحساسَنا... بل هو ما نحياه معلّقين بين لحظتَيْن: لحظةِ الحياة، ولحظة الموت. فحين تكون في منزلك، والمنزلُ يرتجّ عليك، وزجاجُ النوافذ من حولك يستحيل حطاماً، أو يتحول تراباً أبيض، ينحصر تفكيرُك، كلُّ تفكيرك، في نفسك، وفي عائلتك... وفي طفلك، الذي يهزّه الرعبُ من الأعماق، وهو لا يعرف ماذا يحصل، ولماذا يحصل هذا كلّه.

وعلى الرغم من أنّ ما حدث كان قد حدث شبيهُهُ قبل سنوات، فإنّ التذكّر لا يقود الذاكرة إليه... فلقد كان من الكثرة والتواتر، والرعب أيضاً، بحيث غدت الذاكرةُ في حِلٍّ من القدرة على الاستعادة.

وهو، أيضاً، ما ليس في وسع الكلمات إعادةُ تشكيله أو تركيبه في صور محدّدةٍ ومشاهدَ واضحةٍ. فكلّ ما في الذاكرة من الألوان لونان، هما: الأحمر (لونُ الانفجارات واللهب، ودماء الضحايا).. والأسود (لون دخان الحرائق وهو ينبعث من فناء منزل غطّتْ ساكنيه الحجارةُ والترابُ، أو من مبنى مؤسسةٍ للخدمة العامة تهاوت على كل شيءٍ فيها، أو من مرآبِ سياراتٍ أودعها الناسُ فيه

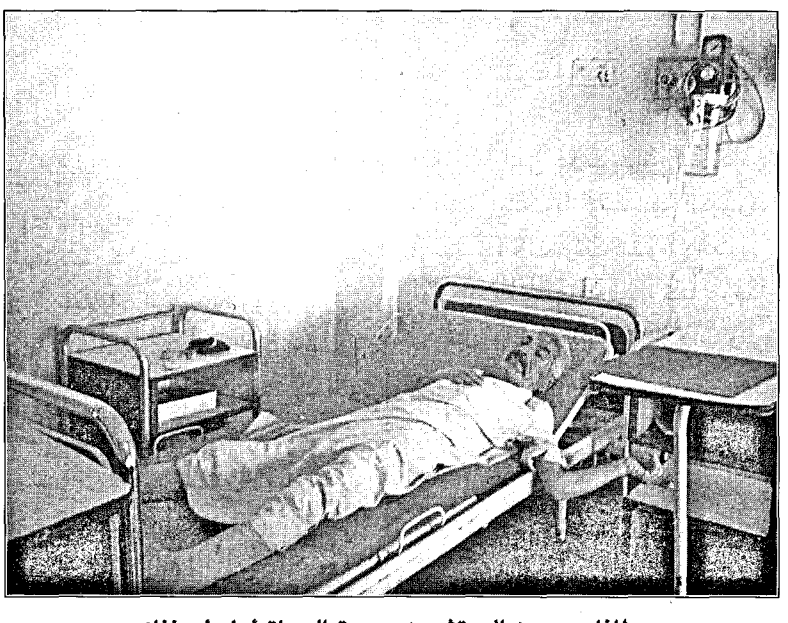

لماذا يعمدون إلى تشويه صورة الحياة أمام أعيننا؟

وذهبوا لبعض أعمالهم، فوجدوها بانتظارهم: هياكلَ محترقةً).

وأجد من الصعب عليَّ أن أرسم لك صورةً لما كانت عليه سماءُ بغداد خلال ليال أربع من القصف، كان من الصعب أن نفكّر فيها إلاّ بالحياة. فقد كان الموت يأتينا مع كل انفجار. وكانت الأصواتُ القريبةُ تختلط بالأصوات البعيدة، ونسمع، في أعقابها، وَقْعَ كتلٍ حديديةٍ تسقط على سطح المنزل أو في حديقة الدار... وفي الصباح نكتشف أنها كانت شظايا صواريخ، تبحث عن مزيد من الضحايا.

ألا ترى معي أنّ من حقّنا (الطبيعي، ربما) أن نفكّر بالمستقبل، ونحلُمَ لأنفسنا وأبنائنا فيه، وأن ننجز جانباً من هذا الحلم في الحاضر الذي نعيش؟

إلاّ أننا نجد توقاً جنونياً يحرّك هذا «البشر» إلى إيقاف الزمن، وإلى تعطيل تفكيرنا بالمستقبل. فنزعة التدمير التي يمارسها معنا تشمل كلَّ شيء، بما في ذلك أحلامنا.

هولاكو الجديد يتوعّد بغداد، و«ابن العلقمي» يُقدّم له مفاتيحها

وإذ استجيب لدعوتك، فإنّي أودّ أيضاً أن أُسمِعك صوتي، وأرجو أن لا يأخذك شيءٌ من فزع وأنت تسمع هذا الصوت يأتيك بنبرات الصراخ.. فهو صوتٌ طالعٌ من أعماق الجحيم، وقد رأى صاحبُه «الصواريخَ الموجَّهة» تتمطى على أسرّة نوم البشر، وفي قلب بيوتهم.. أو تهدم كلَّ ما لنا من شواهد مدنية الحاضر، أو بناءاتِ حضارة الماضي... وتسلبنا مواقعَ الحياة، وتصادر منّا الأزمنة، وتغتال الناسَ والذكريات الجميلة التي كانت لهم.

ويتساءل الإنسان العراقي، الخارجُ من جحيم القصف هذا:

ـ لماذا تهيمن «تماثليةُ الاستخذاء» على الرسميين العرب، حتى كأنّ الوطن العربي (الرسمي) ينفصل عن كل ما له من تاريخ، فيعيش تعدديةَ التبعية: تبعيةِ الموقف، وتبعيةِ القرار، وتبعيةِ الكلمة التي يقول... وكأنّ الذات أصبحتْ مقودةً من مشفرها (كما كان يُقاد العبيدُ في أزمنة الرقّ) إلى ما يراد لها أو يُرسَمُ لها من دور، حيث الاختزالُ والتشويه...

هذا إن بقي شيء في هذه «الذات الرسمية» لم يُختزل ويُشوَّه قبل اليوم بسنين وأعوام؟! بل نجد هذه الذات تناديا، جهراً وفي العلن: استسلمْ تَسْلم، تكيَّفْ تنجُ بل تُثْرِ؛ وكأنّ هذه الذات الرسمية تقدّم لنا من نفسها مثلاً لما تدعو إليه وشاهداً فصْلاً على ما تقول!

هذا مشهدٌ. وهناك مشهد آخر كان مبعثَ مفاجأةٍ، لي ولغيري. حصل في هذه الحرب العدوانية، وفي الأخرى الأكثر شراسة والأشدّ عنفاً: حرب ١٩٩١. إنّ الناس هنا، في محيطٍ وَضَعَهُ الأعداءُ في دائرة التخريب والتدمير والموت، وجدتهم يتَحدَّوْن الموتَ بقوّة الحياة فيهم (وهذه ليست مبالغة، أو تخييلاً). وكأنّ الدمار الذي تُحْدِثه قذائفُ طائرات الأعداء وصواريخهم في محيطٍ واقعِ هؤلاء الناس لا يزيدهم إلاّ إصراراً على البقاء، وتشبثاً بعناصر الوجود الذي يضمّ الكثير من رموز حياتهم. أما الرماد المتخلّف عن حرائق الأعداء فهو يزيدهم توهّجاً، وكأنّ لهباً جامحاً يتدفق من أعماقهم: هو لهبُ التطلّع إلى مستقبل يتعرّض للاستلاب والاغتيال.

أعترف لك بأنّ هذه «الحياة» في هؤلاء الناس فاجأتني مرّتين: مرةً في مطالع العام ١٩٩١، ومرّةً أواخر العام ١٩٩٨. وكأنّ التاريخ، بكل قوّة الحضور فيه، قد نزل على هذه الأرض، وفي أعماق ناسها، فتصاعد بهم إلى أعلى ذُرى الحياة.. وكأنّي بهم يقولون، في ما يَحْيونَهُ ويمارسونَهُ من أفعال الحياة الحقّة: إنّ الإنسان بالمكان، أو لا يكون!

ما الحياة، وكيف تكون في واقع هذا الرعب؟

إنّ كل شيء ما يزال حيّاً في نفوسنا، نابضاً في قلوبنا. فالموتُ، على فظاعة الصور التي حصل فيها، لم يذهلنا.. وإنّ فينا رغبةً (لك أن تَعُدَّها: رغبةً مجنونة ـ ولكنها من جنون الحياة فينا) في مطاولة المستحيل. أما إنْ جاءت كلماتُنا حاملةً نبرةَ شجى، أو مسحةَ حزنٍ مأساويةً، فهو الشجى على مَنْ مات وما اندثر، وهو الحزن والمأساة من هول ما حصل. إلاّ أنّها كلماتٌ لم تستسلم ليأس، شأنها في ذلك شأن الناس هنا. فما إنْ يسكنُ عزيفُ الطائرات المغيرة، وتأخذُ قواعدُ صواريخ «كروز» المطوَّرة فرصةَ تغذيتها من جديد، حتى تجد الحياة قد هبّتْ من قلب بغداد وأطرافها. فذلك الاحتجابُ الاضطراريُ لا يجعلها تستسلم إلا لقوة الحياة فيها، فتندفع بقوة هذه الحياة في طريقِ مقاومتها الخاصة لعوامل الموت، فاتحةً الآفاقَ ـ التي حاولتْ غربانُ الأعداء سدَّها ـ للشمس.

*

هل ستقول عن إنساننا إنه، بمواصفاته هذه، إنسانٌ شعريٌ؟

لعلّه كذلك، ولكنّه إنسانٌ واقعيٌ أيضاً. هناك وحدةٌ بين رؤيته وحياته، هي ما يوحِّد شخصيته وطريقةَ تعبيره عن هذه الشخصية في ما تتخذه من حياة.

ومرةً أخرى أتساءل، ويتساءل الكثيرون، هنا، معي:

ـ لماذا يعمدون إلى تشويه صورة الحياة أمام أعيننا؟

ـ لماذا يصدمون حساسيتنا بمثل هذا التدمير المبرمج؟

ـ بل لماذا يهددوننا في حياتنا ومصيرنا؟

ـ وأيُّ طريقٍ «يفتحون» بهذا، أمام إنسانٍ يدمّرون عالمه، ويخرِّبون واقعَ أشياء، وحيواتٍ، وذكرياتٍ لها في نفسه منزلةٌ، وفي واقعه أكثرُ من دلالة؟

ـ هل هم بهذا التدمير المبرمج يريدون إعادة تشكيل «الزمن العراقي»، تمهيداً لإعادة تشكيل الزمن العربي، وفاقاً للإرادة الاستعمارية الجديدة، مغتالين اللحظةَ الحاضرةَ، طالبين إلينا التخلّي عن كل لحظة مقبلة؟

لا تؤاخذني إذا ما وجدتني أكتب بالسكّين... فقد مرّت الصواريخُ من فوق بيتي، وحوّمتْ «غربانُهم السودُ» في محيطه، فأشعلتْ من الحرائق ما جعل الليل نهاراً من حولنا.. وفي هذا «الضوء» أكتب!

*

قد تسأل وأنت تقرأ هذا الذي أكتب:

ـ ما الحياة وكيف تكون في واقع هذا الرعب، وفي محيطٍ يحصل فيه هذا الدمار؟

وأُجيبك بأنّ هذه هي «الصوفية الخفية» في حياة الناس هنا.. وهي الحياة التي نحياها تجربةً كأعنف ما تكون التجربة.

لا تقل ـ وأنت تسمع هذا الجواب مني ـ إنّها هواجسُ كاتبٍ منفرد. ففي ما نكتب عمّا حدث لا أحسبنا في حاجةٍ إلى استدعاء الشاهد.. فالشاهد نحن، ولا أحد غيرنا (وإنْ كان الواحدُ منّا...*). فقد مرتْ «عاصفةُ الموت» على الجميع، وبالتساوي، لا فرق عندها بين أحد وآخر ولا تمييز... فكلُّ مَنْ يقف على هذه الأرض وله موقعٌ أو مسكنٌ فيها هو هدف. والمطلوب، أمريكياً، هو «تحريرُ» هذه الأرض من إنسانها، وإيجادُ مساحاتٍ عفنة، مستحدثة، ومستصلحةٍ بشرياً، ومهيأةٍ لزرعٍ جديدٍ بتغذية أمريكية.

إنّ هولاكو الجديد يتوعّد بغداد: الإنسانَ، والحضارةَ، والثقافةَ، والحياةَ... وهناك غيرُ واحدٍ يحملُ اسمَ «ابن العلقمي» وينهض بدوره، مقدّماً له «مفاتيحَ بغداد»، ولا يهمّه إنْ سقطتِ الحياةُ العربية كلُّها بسقوطها. فأيُّ شرفٍ هذا الذي يبشّر بسقوط العرب وجوداً كيانياً، ومصيراً إنسانياً؟!

*

أمام هذا، وفي مواجهته، علينا أن نفكّر، ونحكم..

وأمام هذا، وفي مواجهته، ألا ترى أنّ علينا، نحن الكتّابَ الذين لم يبق لنا في هذا العالم الساعي إلى تدمير إنسانيةِ الإنسان سوى الكلمة والموقف (أو الكلمة ـ الموقف)، أن نقول الحقيقة كلّها؟

ولكنْ... هل بمقدورنا أن نفعل ذلك؟

أحسب أننا لو فعلنا لوجدناهم يتّهمون واحِدَنا بما قالتْهُ العربُ يوماً، في موقفٍ مغايرٍ لهذا الذي نحن فيه: «لقد جُنَّ، فصار يهذي»!

غير أنّ جنون الحال التي نحن فيها أكبرُ من كل جنون.

واسلمْ أخاً وصديقاً على طريق الكلمة ـ الموقف

ماجد ....

بغداد

---

* ـ اكل الفاكس سطراً كاملاً من رسالة السّامرائي، وتعذّر اتصالنا به من جديد. (الآداب)